عليكم باللغة العربية

﴿ سيدة اللغات ﴾

مقالة لمحمود بك سالم رئيس جماعة الدعوة والارشاد
« نشرها بمجلة الطلبة المصريين »

وانه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الامين *
على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين
(قرآن مبين)

أيها الطلبة الانجاب ابناء مصر التي شرفها الله فذكرها مراراً في كتابه الحكيم عليكم بتعلم (اللغة العربية) لغة أجدادنا الاشراف الصالحين الذين تركوا أحسن ذكر بين الامم وما زال تأثير أعمالهم المفيدة يعم الاقطار بفتوحات الدين الحنيف المستمرة وانتشار الشريعة المطهرة التي اينما حلت وقوي سلطانها أحيت طيب المبادئ وسامي الافكار

اللغة العربية أقدم اللغات الحية . هي لغة ابراهيم الخليل وزوجته السيدة هاجر المصرية وابنهما اسماعيل صادق الوعد الذين اكرمهم الله ببناء البيت العتيق ليكون مثابة للناس وأمنا

لا شك في أن علماء الآثار يعرفون لغات أخرى أقدم من العربية ولكن كلها ماتت ودفن ذكرها في القراطيس وأغلبها اندثر وانمحى من صحيفة الكون الى يوم البعث حين يخرج أهلها من الاجداث كأنهم جراد منتشر . وجدت حديثاً ابنية شاهقة اسستها أمم راقية في أساليب العمران محفورة كتابات غريبة على جدرانها الآئلة الى السقوط وسط الصحاري أو في أحضان الجبال. ولما قرئت أخيراً تلك الكتابات العجيبة علم أنها تقرب من زمن عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام وأنها بلغة عربية

متينة تكاد ألفاظها وتراكيبها وقواعدها تكون كلها من مستعملات لغتنا الفصحى الحالية . وهذا ما أدهش العلماء حتى انهم وصفوا لغة القرآن المجيد باللغة التي لبس لها طفولة وشيخوخة لانها من يوم عرفت وهي كالغادة الحسناء في حلل الشباب والعافية كأنها من الابكار العرب الاتراب لاصحاب اليمين

ومما تنقله في هذا الموضوع ما ذكره في شأن لسان العرب العلامة (ارنست رينان) ذاك المستشرق الطائر الصيت الذي فاقت شهرته الاقران في كتابه (تاريخ اللغات السامية) حيث قال

« من اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القوية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل . تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها . وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم ومن يوم علمت ظهرت لنا في حال الكمال الى درجة انها لم تتغير أي تغيير يذكر حتى أنه لم يعرف لها في كل اطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . لا نكاد نعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى . ولا نعلم شبيهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج وبقيت حافظة لكيانها خالصة من كل شائبة »

تجد اللغة الفرنسية لا يفهم كلام كتابها وشعرائها الذين ماتوا قبل ثلاث مئة سنة الامن مهر في حل الطلاسم . وكذلك اللغة الانكليزية وباقي لغات اوربا التي تتباهى الآن وتتيه فخراً واعجاباً . وكل تلك اللغات الحديثة في تغيير مستمر وتبديل مستديم . فبون بعيد بين لغة « موليير » مثلا ولغة « زولا » عند الفرنسيس . وبون أبعد بين لغة «ملتن» ولغة «روسكن» عند الانجليز

اما أمة العرب التي كرمها الله ورفع شأنها باصطفاء عبده الاكرم من بين أشراف أشرافها ليكون خاتم النبيين فقد جعلت لغتها آلة تحمل شريعته التي ستدوم ما دامت الافلاك اذ لا نبي بعده ولا دين بعد هذا الدين . فاكتسبت تلك اللغة المشرفة بين لهجات البشر مركزاً لا يباريها فيه لسان من وقت ان صارت منطق الملائكة أقسهم في السماء وامتزجت بالكتاب المجيد امتزاج الروح بالجسد

وقد أوتيت الامة العربية أرقى هبات البلاغة واجمل صفات الفصاحة لتتهيأ لقبول تلك المعجزة الباقية المستمرة مادامت الصحف والكتب . تلك المعجزة التي ظهرت على يد نبي أمي لا يعرف قراءة ولا كتابة وكانت لا تفه البيان والكلام حدايقف أمامه العاقل باحترام ويبهت أمامه المعاند بخذلان

(وصفت العرب من قديم الزمان بالبيان والبلاغة وقد استقصى العلماء شعراءهم فوجدوهم يربون على شعراء سائر الامم الاخرى مجتمعة لان الشعر سليقة عند العرب حتى لتجد رعاة الابل يقصدون القصائد ارتجالا ٠)

لسان العرب له الاحترام الاكبر عند فحول علماء الامم الاجنبية فانهم عرفوا مكانته فوصفوه باعلى الصفات وبذلك ارتفع قدر الامة العربية نفسها عند من يقدر الاشياء حق قدرها

قال القسيس الانجليزي (س ٠ م ٠ تزويمر) وهو من كبار البروتستانت في كتابه المشهور (جزيرة العرب ٠ مهد الاسلام)

« يوجد لسانان لهما النصيب الاوفر في ميدان الاستعمار المادي ومجال الدعوة الى الله وهما الانجليزي والعربي وهما الآن في مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء مستودع النفوذ والمال يريد ان يلتهم كل منهما الآخر وهما المضدان للقوتين المتنافستين في طلب السيادة على العالم البشري ٠ اعني النصرانية والاسلام ٠ »

وقال انجليزي آخر وهو القسيس الشهير (جورج بوست)

« لغة العرب تفوق كل لغة في الانتشار اذا نظرنا الى اتساع الاقطار التي لها فيها سلطان ٠ وهي تفوق أيضاً كل لغة اذا نظرنا الى التأثير في مستقبل الاعمال البشرية ولا نستثني من كل تلك اللغات الا لغتنا الانجليزية »

وقال أحد علماء الانجليز المتمكنين من علوم العرب يصف لسانهم نقلا عن كتاب (تزويمر) المذكور آنفا

« انه خالص من شوائب الدخيل غني بنفسه عن غيره ٠ وفيه مقدرة عجيبة على ايضاح المعاني واظهار الافكار ٠ ومفرداته لا تحصى ولا تعد ٠ وقواعده النحوية في غاية المتانة ٠ وبالاختصار به يسهل عرض الموضوعات الدينية والفلسفية والعلمية بطريقة لا تفوقها لغة الا الانجليزية وبعض لغات أخرى قليلة رقاها الدين النصراني في اوربا الوسطى ٠ »

ولنستشهد بكلمة لاحد الفلاسفة الظرفاء اراد مدح المعارف الدنيوية عند أهل أوربا والصنائع اليدوية في الشرق الاقصى فقال

« استوى الكمال على ثلاثة اشياء. مخ الافرنج. وايدي أهل الصين. ولسان العرب »

حقاً ليس للغة العرب مثيل في كمالها اذا قارناها باخواتها فان قلنا أن (العبرية) لغة مقدسة عند أهل التوراة والانجيل فالعربية بالقرآن أقدس . وبجانب فرد واحد

يقرأ التوراة باحترام وتجلة نجد مئة مسلم يتلون الكتاب المجيد حق تلاوته باحترام أعظم واجلال أظهر . وان قلنا إن (اللاتيني) لسان العبادة في الكنائس الكاثوليكية فلسان الاسلام أعم في مساجد المشرقين والمغربين بين أهل التوحيد جميعاً والصلاة به متواصلة تواصل ساعات الزمن . ألا ترى المؤذن يدعو المؤمنين الى صلاة الفجر في جزر الفيلبين في أقصى الشرق باللسان العربي المبين فتتبع تكبيراته تكبيرات المئات والالوف من أهلها يتردد صداها من مئذنة الى مئذنة ومن جبل الى جبل ومن واد الى واد فاذا قضيت صلاته في تلك الجزر تنقل الأذان منها الى غيرها تنقل الفجر في مطالعه فسمعته في الصين وسيبريا ثم في الهند وفارس . ثم في مكة المكرمة والمدينة المنورة . والقدس الشريف . والقسطنطينية المحمية . ثم في مصر المحروسة بحماية الله . ثم في تونس الخضراء . ثم في الجزائر والسودان . ثم في الغرب الاقصى . ثم يصل هذا الصوت الرخيم الى الاوقيانوس حتى شواطئ الامريكان في أقصى الغرب فهكذا كلما طلع الفجر وبزغ النور قام الناس للصلاة والفلاح . لعبادة الخلاق العظيم الذي يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا . مع دوران الشمس تسمع أمواج الأذان كأمواج البحر المتلاطم تطرد الموجة الشرقية أختها الغربية لتوقظ العباد الصالحين من نومهم العميق فلا تفوت لحظة من الزمن الا وفيها لله عبادة وللقرآن ترتيل

فان قيل ان اليونانية القديمة ثم اللاتينية ثم الانكليزية أو الالمانية كانت وما زالت آلات ومبادلة الافكار بين الافرنج فان لساننا العربي كذلك آلة كاملة لمبادلة الافكار والعلوم بين المسلمين في آسيا وافريقيا وجهات أخرى كثيرة . وان قيل ان لغة الفرنسيس لغة أهل السياسة في أوربا أجبنا أن لغة العرب رابطة أقوى منها في مثل هذه الشؤون الاجتماعية لان الامم الاسلامية جمعاء مرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً بواسطتها فالعالم المسكوبي مثلا يعرف بها شؤون أهل رأس الرجا الصالح ثم يرشد أهل وطنه . والعالم البوسنوي يعرف بها أحوال القطر المصري وينبه أبناء جنسه . والعالم الجاوي يتناول بذلك اللسان العام الجامع معلوماته عن أحوال القسطنطينية والقوقاز وفارس ، وهكذا تتبادل الافكار المفيدة

لغة الكتاب العزيز تنشر في أنحاء المسكونة العلوم الادبية والاخلاقية والاجتماعية والسياسية والشرعية وغيرها . فهي الرابطة القوية والعروة الوثقى التي لاانفصام لها . بها تتقارب الاجناس المختلفة وتتشابه الاضداد بالتدريج في الاحكام والاخلاق والمبادئ وبها تتساوى الناس في معرفة الشريعة الغراء لافرق في ذلك بين السود والبيض والصفر

والحر فهي أقوى رابطة « يروح القرآن وفي ظله » وتفوق متانة كل روابط الجنسية والوطنية وغيرها

اللغة العربية لها الفضل على أكثر اللغات الجديدة في مشارق الارض ومغاربها . فلو أخرجت من قواميس الاسبانيول والبرتغيز وسكان أمريكا الجنوبية والوسطى مثلا جميع المفردات العربية والحلى التي اكتسبتها رطانتهم من العرب لما عرفت تلك الامم ان تبدي فكرا ساميا ولتاهت في مجاهل العي والبكم ولعجزت الآن ان تتباهى بشعرائها وأدبائها

وأين تكون لغة الفرنسيس أنفسهم لو جردناها من كل مايزينها من مخلفات فصحاء الحجاز

فما بالك باللغات الاسلامية مثل الفارسية والتركية والهندوستانية والجاوية والملايو وغيرها من ألسنة السودان والتتار والبربر واخوانهم. حقا لو أخرجنا المفردات العربية التي في تلك اللغات كما يطلب ذلك بعض المتفرنجين من كتابها لبقيت كهيكل الميت . عظاما مفككة لاحياة فيها

لغة العرب هي لغة المستقبل لان النبي العربي هو خاتم النبيين فشريعته باقية الى يوم القيامة (كما قدمنا) والقرآن الكريم حامل تلك الشريعة المطهرة هو السبب في بقاء اللغة العربية حية بين الشعوب لانهم لايفهمون دينهم على وجهه الصحيح من هذا الكتاب الكريم الابها . فلذلك تموت جميع اللغات الاخرى أيا كانت وتبقى لغة العرب في بهائها وجمالها . وقد أجاد أحد علماء الافرنج المشهورين بعلومهم الواسعة اذ كتب قصة خيالية فرض فيها سياحا في أجواف الارض تحت قعر البحر العميق وجعل هؤلاء السياح يخترقون طبقات القرى الارضية حتى وصلوا الى وسطها أو مايقرب من ذلك ولما أرادوا الرجوع الى وطنهم فكروا في ترك أثر يحفظ ذكرهم الى أبد الآبدين اذا وصلت علماء الاجيال المستقبلة الى محط رحالهم فاتفقوا فيما بينهم ان ينقشوا على الصخور كتابة باللغة (العربية) هذا ولما سئل (جول فرن) كاتب هذه القصة عن سبب اختياره تلك اللغة العربية قال انها لغة المستقبل ولا شك في ان يموت غيرها وتبقى هي حية حتى يرفع القرآن نفسه — فتأمل أيها القارئ اللبيب واعلم ان طعن الطاعنين في لغة أجدادك الاماجد ثرثرة لا يعتد بها

***

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون انما يتذكر أولو الالباب »

اعتاد بعض المتفلسفين من امد بعيد الطعن في لساننا العربي الفصيح لاغراض في النفس ومنشأ هذه الاغراض اما تعصب ديني طائش السهم، واما الجشع الاستعماري الذي يعمي ويصم، فقامت في زمننا حرب عوان بين علماء الافرنج المستشرقين سببها اختلافهم في الحكم على لغتنا باستطاعتها أوعدم استطاعتها التعبير عن الافكار الدقيقة وتدوين العلوم المتنوعة بالحديثة ففريق نصرها وفريق خذلها . فأما الناصرون لها فقد مر عليكم شيء من أقوال بعضهم وأما الخاذلون فنهم من رماها بالفقر المدقع في مادة التعبير والعي المعجز عن تأدية الغرض من اللغات وهذا ظاهر بهتانه . ومنهم من اعترف لها بالغنى ولكن زعم أن غناها مفرط زاد عن الحد وشبه أهلها برجل كثر ماله كثرة لاحد لها فعجز عن حصره وتدبيره وفاته الانتفاع به

هذا بعض مارميت به لغتنا فيجب علينا معشر المصريين ان نهض بالعلوم القوية وبالفنون الادبية حتى لايجرأ عاقل بعد الآن على الحكم على لساننا المبين الا بعد أخذ رأينا ولا يصح ان تعطى الفتاوى الطويلة العريضة من الاجانب في أمور العربية ونحن احياء نرزق من غير أن يكون لنا صوت مسموع

لاشك ان أول واجب علينا أن نعتني بلغتنا الجميلة وان نتفانى في حبها وخدمتها كما فعل من سبقنا في العصور الماضية من أهل الفضل والاحسان الذين تغلبوا على الشهوات وصرفوا الاموال وسهروا الليالي وجابوا البلاد في التماس حرف من حروفها جهلوه فاستفادوا وأفادوا . وأنتم أيها الطلبة الافاضل سيكون لكم شأن عظيم في القريب العاجل فاستعدوا لذلك قبل أن تفوت الفرص

لنتناسلاحنا الماضي البتار في جهاد هذه الحياة ودرع النجاة. فبها نحيي علوم أجدادنا الواسعة الدائرة ونظهر كنوزهم الثمينة المدفونة في مكاتب الصين والهند والسودان وفي أوربا خصوصاً اسبانيا والقسطنطينية ولو لم نستخرج الا الالفاظ الاصطلاحية العديدة التي نسيت ونحن في حاجة اليها لكفانا . فان العلوم لاتفهم ولا تنشر الا بالاسماء ومادمنا نستعمل ألفاظا أجنبية فانا لانقدر على تعليم عامة الامة الا بكل صعوبة وان تعلمنا نحن بعد الجهد الجهيد من كتب الاجانب

اسماء الحيوان والنبات والجماد موجود أغلبها في العربية والاصطلاحات الطبية والفلكية والفلسفية موجودة كذلك في كتبنا ومن الجهل ان ندعي انها لاتوجد

وكذلك مصطلحات باقي العلوم والفنون المدفونة في بطون السطور التي تركها لنا آباؤنا الاولون . فلاضرورة تلجئنا إلى لي الالسنة بمعجرفات مستهجنة كما يفعل بعض المتفيهقين الثرثارين في التعبير عن مصطلحات موجودة نظائرها في كتبنا

ولا مانع من تعريب الكلمات الاعجمية الدالة على المسميات المستحدثة أو استعمالها على عجميتها عند الضرورة كما أدخلت اصطلاحات عربية كثيرة في قواميس الشعوب الافرنجية وغيرها

ومن يدعي من أهل العجمة ان سيدة اللغات فقيرة فليفتح عينيه فانه يجد في نفس رطانته الفاظاً فنية متعددة أصلها عربي وليرجع الى الحق ان كان من أهله « فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور »

***

وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج
وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا »

لمصر مقام خطير بين الشعوب الاسلامية لمكانها من ملتقى الابحر ولترقيها العلمي العظيم من يوم أن أيقظ (محمد علي الكبير) اذهان أهلها وأنشأ بينهم المطابع التي كانت ينبوعا صافيا رويت بفيضه جميع الاقطار ، وأزهرها المنيف له الفضل على أغلب طلاب العلوم الشرعية المنتشرين في أنحاء المسكونة فهذه (الجامعة الاسلامية) كالشمس الباهرة يستضيء بها عباد الله المخلصون

وتأثير مصر يزداد يوما فيوما في القاطنين بالاراضي المطهرة سواء أهل مكة والمدينة أو البقاع التي بارك الله حولها ومنها ينتقل ذكر مصر المحبوبة الى باقي أوطان المسلمين في المشارق والمغارب

وظيفة مصر الادبية ستزداد أهمية في المستقبل لانها وسط عالمين اسلاميين كبيرين هما العالم الاسيوي والعالم الافريقي اللذان يريدان أن يتعانقا باشتياق عظيم وتحابا . ولا يخفى ان مصرنا هي القنطرة التي تصل بين الحبيب وحبيبه وان لها مزايا كثيرة في هذا الشأن عند أهل الذكر

ومن جهة أخرى فان قطرنا المبارك سيتخذ كوصلة تربط العالم الافرنجي ذا المعارف المنعشة والفنون الجميلة بأمم عديدة جمدت على ما وجدت عليه آباءها من اسباب الفوضى والانحلال

وها هي (الجامعة المصرية) أول خطوة في ذلك الطريق السلطاني الجديد فماذا نعمل في وظيفتنا هذه الجديدة ؟ هل نوصل تلك المعارف والفنون باستقلال رأي مكيفين لها حسب مبادئنا وأذواقنا الاسلامية حتى نكون باب نعمة على أخواتنا من عرب وعجم او نكون آلة صماء تعمل حسبما نحركها ولا تعمل الا شراً فنهيئهم لأن يصيروا فريسة سائمة وغنيمة باردة؟؟ستؤدي وظيفتنا حسبما تكون تربيتنا فان حسنت التربية حسنت النتيجة والعكس بالعكس ولا تكون التربية جيدة الا اذا تأسست على مبادئ محمدية ولا تكون المبادئ محمدية الا ان استخرجناها من الكتاب العزيز وهذا لا يتأتى الا اذا أحطنا باللغة العربية وعرفنا اسرارها وفقنا كل مخلوق في اظهار محاسنها وعجائبها لا ان يسبقنا علماء الاجانب مثل أساتذة (كمبريدج) و (لا يدن) و (برلين) وغيرها ويتركونا وراءهم تائهين في مجاهل (الحواشي) الثقيلة السقيمة لاهين بما فيها من سفسطة دقيقة عقيمة

من يخدم اللغة العربية فانه يخدم الاسلام وخدمة الاسلام تؤدي الى ترقية بني الانسان كلهم اجمعين. فهل يحجم الطلبة المصريون عن جهاد علمي يكون لهم بعده الفخر الابدي ولمصرهم العزيزة ولجماعة الموحدين الحظ الاوفر ؟

برقي اللغة العربية يسود القرآن وتنتشر علومه وتزيد الشعوب العربية ارتباطا فتقوى وتترعرع وفي أن واحد يقوى ويترعرع المجموع الاسلامي كله

فلينظر الطلبة المصريون الى علو مكانتهم في المستقبل وسط الأمم المختلفة . تلك المكانة الخطيرة التي تشبه ان تكون (رقابة أدبية عالية) شرطها الأول خدمة لسان النبي القرشي عليه أفضل الصلاة والسلام لاجل فهم كتاب الله المجيد على وجه يوصل الى سعادة العالم بالعمل به . وليتدبروا كثيراً معنى الآية الحكيمة

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

القاهرة في ٥ جمادي الآخرة

(محمود سالم)